التقديم والتأخير من أسرار البيان في القرآن الكريم

أ- خالد حسين محمد إسماعيل ــ كلية التربية . قسم الدراسات الإسلامية.
جامعة مصراتة.

المقدمة :

الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على من مبعثه ربه بالحق بشير ونذيرا.

وبعد: فإن الله جل وعلا ختَم الكتب المنزلة بالقرآن الكريم، وأنزله بلغة العرب التي تمتاز بالفصاحة والبلاغة والبيان، فالقرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته، بلسان عربي مبين، وهو الحجة والبرهان، والمعجزة من جميع الوجوه، من حيث الأسلوب والنظم والبلاغة، وما يحتوي من قصص وأخبار، وغير ذلك من وجوه الإعجاز.

وقد تحدى الله - سبحانه وتعالى - الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فعجزوا، فقال- : **{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانَ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}** [1] .

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في فهْم معاني وأسرار القرآن الكريم؛ فإن مجاله رحب ومتّسع، يحتاج إلى التدبر والفهم الصحيح، قال الزركشي[2] - رحمه الله -: (ومن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر، لم يدرك من لذّة القرآن شيئا)[3] .

وهو سرّ من أسرار التعبير، عظيم الفائدة، يكسب الكلام جمالا وتأثيرا، فكل لفظ في كتاب الله موضوع بما يتناسب مع سياقه وموضوعه، فترى الكلمة أحيانا قدّمت في موضع وأخّرت في موضع آخر تناسباً مع سياقها وغرضها، والأصل في ترتيب الكلام أن يوضع كل لفظ في موضعه تقديما وتأخيرا ، إلا أن العرب تتفنن في أسلوبها وكلامها، فأصبح هذا الأسلوب وغيره من الأساليب من سنن العرب[4].

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى التأمل في آيات الله والوقوف على الأساليب الرائعة، والجمال اللفظي، واللطائف، والحكم والأسرار لهذا الأسلوب، فهو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية [5] ، وهذا الأسلوب بأنواعه، وتعدد أبوابه، وكثرة أسبابه، يدخل في قول ابن تيمية[6] - رحمه الله -: (أصح طرق التفسير أن

يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل في مكان فإنه قد فُسِّـــرَ في موضع آخر وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر)[7].

مشكلة البحث:

الناظر في هذا الأسلوب يجد أنه متنوع الأسباب والأغراض، غزير اللطائف، كثير الدقائق، فما من كلمة قدّمت في موضع وأخّرت في موضع آخر إلا وتتناسب مع سياقها وغرضها، فتتغير دلالة المعنى بناء على تغير السياق، وما من كلمة وضعت في موضعها إلا لتحمل المعنى الذي وضعت من أجله، فتظهر مشكلة البحث في اشتمال هذا الأسلوب على حكم ولطائف دقيقة، ينبغي على المتأمل في كتاب الله الوقوف عند دلالاتها وأسرارها.

تقسيم البحث:

تمثل منهج هذا البحث في الخطوات التالية:

المبحث الأول: تعريف التقديم والتأخير لغة واصطلاحا، وبيان أهميته. ويشتمل على مطلبين: المطلب الأول: تعريف التقديم والتأخير لغة واصطلاحا. والمطلب الثاني: أهمية التقديم والتأخير في القرآن الكريم. وفي المبحث الثاني: أنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وقواعده. ويشتمل على مطلبين: المطلب الأول: أنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم، والمطلب الثاني: قواعد التقديم والتأخير في القرآن الكريم. الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث.

المبحث الأول: تعريف التقديم والتأخير لغة واصطلاحا، وبيان أهميته.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف التقديم والتأخير لغة واصطلاحا.

أولا: التقديم لغة:

قال الزَّبِيدي[8]: القَدَمُ: السَّابِقَةُ في الأمر [9]. وقال الأخفش[10]: تقول: (هؤلاء أَهْل القَدَمِ في الإسلام) أي: الذين قدّموا خيرا، فكان لهم فيه تقديم[11].

وقَدَم بالفتح يَقْدُمُ قَدْما، أي تَقَدّم[12]. وفي القاموس المحيط: وأَقْدَمَ وتَقَدَّمَ، واسْتَقْدَم: من كُلِّ شيءٍ: أوَّلُه[13].

ثانيا: التأخير لغة:

جاء في الصّحاح: أَخَّرْتُه فتأَخَّر واسْتأْخَر، مثل تأَخَّر، والآخِرُ: بعد الأول، تقول: جاء آخِراً أي أخيراً[14]. وقال الخليل بن أحمد[15]: والآخِر: نقيض المتقدِّم، ويقال الأخير: الأبعَد[16]. والتأْخيرُ ضد التقديم، ومُؤَخَّر كل شيء، بالتشديد، خلاف مُقَدَّمِه [17]، قال الكفـــوي[18]: التقديم هو من قدَّم، وقدّمت كذا فلانا، تقدّمته وقدَّمت بكذا إلى

فلان، أعلمته قبل وقت الحاجة إلى فعله، وقبل أن دهمَه الأمر[19] ، وبذلك يتبين لنا من خلال هذا التعريف اللغوي، أن التقديم ما وضع أول الشيء، والتأخير: ما تأخّر وجاء آخرا.

ثالثا: التقديم والتأخير اصطلاحا:

هو جعْل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية، أو بعدها، لعارض اختصاص أو أهمية، أو ضرورة[20] .

المطلب الثاني: أهمية التقديم والتأخير في القرآن الكريم:

تحدّث المفسرون وغيرهم من أهل العلم في كتبهم عن هذا الأسلوب، وأفردوا له أبوابا، وتناولوه بالدراسة، وفي هذا دلالة على وجوده وأهميته، وأنه من الأساليب البلاغية التي اختص بها العرب التي ترتقي بها جوانب الإعجاز القرآني.

قال مجاهد[21] في قول الله - تعالى -:{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّمًا**}[22] :هذا من التقديم والتأخير، أنزل على عبده الكتاب قيّما، ولم يجعل له عوجا[23] .

وقال ابن كيسان[24] في قول الله - تعالى -:{**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**}[25]:هو على التقديم والتأخير، وتقديره: انشق القمر واقتربت الساعة؛ لأن الأصل في ترتيب الأخبار أن يجري على ترتيبها في الوقوع، وإن كان العطف بالواو لا يقتضي ترتيباً في الوقوع[26] .

وهذا الأسلوب هو أحد أساليب البلاغة، وقد تعرض السلف له، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم[27] .

قال ابن الأثير[28] واصفا هذا الأسلوب: أنه باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة، منها ما استخرجته أنا، ومنها ما وجدتُّه في أقوال علماء البيان[29] .

ومما يدل على أهميته ما ذكره عبد القاهر الجرجَاني[30] ، بقوله: (هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفْتَرّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمَعُه، ويلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك، ولطُف عندك أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان)[31] .

من أجل هذا، يجب الاعتناء بهذا الأصل ؛ لعظم منفعته في كتاب الله – تعالى- إذ لا بد من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدّم وتأخير ما أخّر، نحو السميع والبصير، والظلمات والنور والليل والنهار، إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة؛ لأنه كلام الحكيم الخبير.

المبحث الثاني: أنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وقواعده.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

ذكر الزركشي أن للتقديم والتأخير في القرآن الكريم أنواعا ثلاثة، وهي كالتالي:

النوع الأول: ما قدّم في القرآن الكريم والمعنى عليه. وقد درَج تحت هذا النوع خمسا وعشرين

سببا كما ذكر.

النوع الثاني: ما قدّم في القرآن الكريم والنية به التأخير.

النوع الثالث: ما قدّم في آية وأخّر في أخرى.

وقال ابن الأثير: التقديم والتأخير ضربان:

الأول: يختص بدلالة الألفاظ على المعانيِ، ولو أخر المقدَّم أو قدِّم المؤخر لتغير المعنى.

وهذا ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: يكون التقديم فيه هو الأبلغ، والآخر: يكون التأخير فيه هو الأبلغ، فأما القسم الذي يكون التقديم فيه هو الأبلغ، فكتقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل.

الثاني: يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخّر لمَا تغير المعنى

وهذا ما لا يحصره حد، ولا ينتهي إليه شرح[32].

وفي هذا المطلب سأتناول- إن شاء الله- هذه الأنواع بذكر بعض أسبابها، مكتفيا بذكر مثالين لكل نوع يوضح أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، مع ذكر أقوال المفسرين في ذلك، موضّحا من خلالها حكمة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وما في ذلك من لطائف وأسرار، ولا يمكن لنا ذكر أمثلة لكل الأسباب جميعا، فالمقام لا يتّسع، وما سنذكره فهو على سبيل الذكر والتوضيح لا على سبيل الحصر.

النوع الأول: ما قدم في القرآن الكريم والمعنى عليه.

هذا النوع يكون اللفظ والمعنى قصد تقدمهما، ومن الأسباب التي تندرج تحته: التبرك والتعظيم، والتشريف، والمناسبة، والحث عليه والحض على القيام به، والسبق، والسببية، والكثرة والترقي من الأدنى إلى الأعلى، والتدلي من الأعلى إلى الأدنى، ومراعاة الإفراد، والتعجيب من شأنه، وقصد الترتيب، ورعاية الفواصل،

وقصد الترتيب، وإفادة الحصر، والاختصاص، وكونه أدل على القدرة. إلى غير ذلك من الأسباب[33].

ومثال ذلك في القرآن الكريم: قول الله - تعالى-:{ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** }[34]، قدّم جمال الأنعام في الآية حال رجوعها بالعشيّ من المراعي على جمالها حال مسيرها إلى مراعيها بالغداة، وذلك لمناسبة المتقدم لسياق الكلام، فجمالها عند رجوعها دون الأول؛ لأنها قد رعت وامتلأت ضروعها وامتدت أسنمتها [35]، قال الرازي[36]: قدّم الإراحة على التسريح؛ لأن الجمال في الإراحة أكثر؛ لأنها تُقبل ملأى البطون والضروع، مجتمعة في الحظائر، بخلاف التسريح، فعند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في الانتشار، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح[37].

ومن الأمثلة كذلك: ما جاء في قول الله - تعالى- :(**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**}[38]، ففي الآية قدّم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس، وإن كانوا أشرف محلا؛ لأن حياة الأرض هي سبب لحياة الأنعام والناس، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدِّمة في الذكر ولما كانت الأنعام من أسباب الحياة للناس وعامة منافعهم ومعايشهم مَنوطة بها قدّمها في الذكر ؛ لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدّم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم، وهذا من باب تقديم السبب على المسبّب[39].

قال الرازي: قدّم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناســـي؛ لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدّم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم؛ لأنهم إذا ظفَروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم، فقد ظفروا أيضاً بسقياهم[40].

ومن الأمثلة أيضا: ما جاء في قول الله – تعالى-:{وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}[41].

فقدَّم الجبال على الطير في الآية؛ وذلك لأن تسخير الجبال وتسبيحها أغرب وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد، وهذا من باب كون التقديم أدل على القدرة وأعجب.

قال الزمخشري: قدّم الجبال على الطير؛ لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق[42].

النوع الثاني: ما قدم في القرآن الكريم والنية به التأخير.

قال الكفوي: والتقديم على نية التأخير تقديم معنوي[43]، وهذا النوع منه ما يكون في الإعراب: كتقديم المفعول على الفاعل، وتقديم الخبر على المبتدأ ومنه ما يكون في

المعنى بأن أُشكل معناه بحسب الظاهر، فلمّا علم أنه من باب التقديم والتأخير اتّضح [44].

ونموذج ذلك في القرآن الكريم: قول الله – تعالى-:(**وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ**} [45]

فتغييرُ النظم بتقديم الخبر على المبتدأ للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومأمن ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في مُعازّتهم ولو قدّم المبتدأ لمَا أفاد هذا المعنى[46].

قال الطوفي: في تقديم الخبر وهو " مانعتهم " إخبار بأمرين:

أحدهما : كمال قدرة الله - تعالى - على خلقه، بحيث لا عاصم من أمره إلا من رحم؛ لأن هؤلاء اعتقدوا حصانة حصونهم، ووثقوا بمنعهم إياهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فلم يعتصموا.

الثاني: جهلهم، وقلة عقولهم؛ حيث لم يحتاطوا لأنفسهم، ويتحصنوا بطاعة الله ورسوله التي هي أمنع الحصون، ولو قدّم المبتدأ لمَا أفاد الكلام هذا المعنى، أو أفَاده إفادةً ضعيفة[47].

ومن الأمثلة أيضا: ما جاء في قول الله – تعالى - :{**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي** }[48].

ففي تقديم الخبر على المبتدأ " أراغب أنت " زيادة في الإنكار والتعجب على إبراهيم - عليه السلام - وذلك لرغبة إبراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها، وهذا بخلاف ما لو قال: " أأنت راغب عن آلهتي "[49] ، قال ابن عاشور[50]: فدلّ النظم في هذه الآية على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة؛ لأنها موضع عجب[51].

ومن الأمثلة كذلك: ما جاء في قول الله – تعالى- :{ **فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ**}[52].

قال الرازي: هذا على التقديم والتأخير والتقدير: وامرأته قائمة فبشرناها فضحكت سروراً بسبب تلك البشارة، فقدّم الضحك في الآية، ومعناه التأخير.[53] . وقال ابن عاشور: لأنّها ما ضحكت إلا بعد أن بشّرها الملائكة بابن.[54] .

النوع الثالث: ما قدم في آية وأخّر في أخرى.

وهذا التقديم والتأخير يكون بسبب الاعتناء بشأنه، أو لقصد التفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب، أو لكون السياق في كل موضع يقتضي ذلك، ويأتي لغير ذلك. وفي هذا النوع يكون التقديم والتأخير في الآية الواحدة؛ وقد يقع التقديم في آية والتأخير في آية أخرى واللفظ واحد والقصة واحدة، ويظهر ذلك بدراسة هذه الآيات ومقارنتها[55].

ومثال ذلك في القرآن الكريم: قول الله – تعالى - :{ **وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ** }[56] وقوله - سبحانه - :{ **وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا** }[57]، فقد فُرّق في التعبير بين القصتين على عادة أسلوب القرآن الكريم في تغيير أسلوب القصص وذلك استجداداً لنشاط السامع [58].

ومن الأمثلة كذلك: ما جاء في قول الله – تعالى- في سورة سبأ :{ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** }[59]، ففي هذه الآية قدّم السموات على الأرض؛ لأن معلوماتها أكثر، فهو أبلغ في الدلالة على صفة العالمية، لكنه قدّم الأرض - الذي من حقها التأخير - على السماء في سورة يونس في قول الله - سبحانه- :{ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**}[60]. وذلك لما كان الكلام على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ناسب أن تتقدّم الأرض على السماء في هذا الموضع، وهذا من باب ذكر الشيء مع ما يناسبه[61].

قال ابن الأثير: إذا جاءت الأرض مقدّمة في الذكر، فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه، وإن خفي ذلك السبب، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض[62].

ومن الأمثلة أيضا: قول الله - تعالى-: {**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** }[63]، ففي هذه الآية ابتدأ الله بالذين ابيضّت وجوههم،، وعندما شرع في حكم هذين القسمين قدّم حكم الذين اسودت وجوههم، وكان حق الترتيب أن يقدم حكم الذين ابيضت وجوههم، فابتدأ الله - تعالى - بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض، لأن تقديم الأشرف على غيره في الذكر أحسن، ثم ختم بذكرهم أيضاً تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب، فلهذا وقع الابتداء بذكر أهل الثواب والاختتام بذكرهم[64].

وبعد ذكر هذه الأنواع وبعض أسبابها، يتبين أن أسباب التقديم والتأخير كثيرة، وهي تندرج تحت هذه الأنواع الثلاثة، كما ذكر غير واحد من العلماء[65].

المطلب الثاني: قواعد التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

في هذا المطلب نقف على نماذج من القواعد المتعلقة بهذا الأسلوب:

1 - التقدّم في الذكر لا يعني التقدّم في الوقوع[66].

ومن ألفاظها: الترتيب في الذكر لا يدل على الترتيب في الوجود[67].

ومن تطبيقات هذه القاعدة: ما جاء في سورة البقرة عند قول الله - تعالى -: { **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**}[68]، وكان الله - تعالى- قد قال قبل هذه الآية: { **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**}[69]، فهذا من المؤخر الذي يراد به التقديم،

فالآية مؤخّرة في التلاوة، مقدّمة في المعنى وتأويله: وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها، فسألتم موسى، فقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة وهذا عادة العرب في كلامهم[70].

ومن تطبيقاتها: قول الله - تعالى -: { **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيئِينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**}[71]، فقدَّم ذِكْر النبيّ محمد – صلى الله عليه وسلم – على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى - عليهم الصلاة والسلام - مع أنهم وجدوا قبله[72].

ومن تطبيقاتها كذلك: قول الله - تعالى - { **وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** }[73]، فقدّم عيسى - عليه السلام - على قوم كانوا قبله؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب[74].

2- التقديم في الذكر لا يستلزم التقديم في الحكم[75].

ومن ألفاظها: ترتيب اللفظ لا يُوجب ترتيب الفعل[76].

ومن تطبيقات هذه القاعدة: قول الله- تعالى-{**وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ**}[77] قيل لابن عباس[78] - رضي الله عنه -: إنك تأمر بالعمرة قبل الحج، وقد بدأ الله بالحج فقال – سبحانه -:{ **وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ**}[79] فقال: كيف تقرؤون آية الدَّين؟ فقالوا:{ **مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** }[80] فقال: فبماذا تبدؤون؟ قالوا: بالدَّين. قال: هو كذلك[81].

ومن تطبيقاتها أيضا: قول الله – تعالى- **:**{ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** }[82]، ولا شك أن الرفع قبل الوفاة، فيكون الرفع سابق وإن ذكرت الوفاة قبله في الآية، والواو لا تفيد ترتيب الزمان[83].

قال القرطبي[84]: قال جماعة من أهل العلم: هذه الآية على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة، والمعنى: إني رافعك إليَّ، ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد إنزالك من السماء[85].

3- العرب لا يقدّمون إلا ما يعتَنون به غالبا[86].

ومن ألفاظها: من عادة العرب أنهم يبدؤون بالأهم والأوْلى[87].

وكل ما ذكر من أسباب للتقديم والتأخير كالتبرك، والتعظيم، والتشريف، والمناسبة، والحث عليه والكثرة، وغيرها، يدخل تحت هذه القاعدة.

ومن تطبيقات هذه القاعدة: قول الله - سبحانه- : {**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ** }[88] ، فحال المهاجرين أعلى في الفضيلة من حال الأنصار،

لأنهم السابقون في الإيمان، ولتحملهم العناء والمشقة من كفار قريش وصبرهم عليه، والمضار الناشئة من مفارقة الأوطان والأهل والجيران، فهذه الأسباب توجب تقديم المهاجرين على الأنصار في الفضل والدرجة والمنقبة، وأينما ذكر الله هذين الفريقين قدّم المهاجرين على الأنصار[89].

وفي الحديث عن أبي هريرة[90] - رضي الله عنه- عن النبي- صلى الله عليه وسلم - قال: (**وْلولاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ وَادِيًا - أَوْ شِعْبًا - لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ، - أَوْ شِعْبَ الأَنْصَارِ -**)[91] ، ومن تطبيقاتها كذلك: قول الله - تعالى- : {**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** }[92] **.** في هذه الآية قدّم الأكثر، وبعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخراً، فترى أنه قدّم الظالم لنفسه للتنبيه أن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصدين؛ لأنهم قليل، ثم أتى بالسابقين، وهم أقل من المقتصدين[93] **.**

قال الزمخشري: قدّم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؛ للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقلّ من القليل.[94] ، ومن تطبيقاتها كذلك: قول الله – تعالى- :{ **وَأَقِيمُواْ الصَّلوةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوةَ** } [95] ، فبدأ بالصلاة ؛ لأنها أهم[96] . إلى غير ذلك من الأمثلة والتطبيقات التي ذكرها العلماء.

الخاتمة

بعد هذه الوقفات مع آيات من القرآن العظيم الذي لا تنتهي أسراره ودقائقه ولطائفه، أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها وهي كثيرة، ومنها:

1- أسلوب التقديم والتأخير من الأساليب البلاغية التي اعتنى بها المتقدمون والمتأخرون.
2- كل تقديم أو تأخير في كتاب الله – تعالى - لفظا أو معنى، يفضي إلى لطيفة، ولا يخلو من فائدة، فهو كلام الحكيم الخبير.
3- قد يكون للآية أو الموضع الواحد أكثر من سبب للتقديم أو للتأخير.
4- هذا الأسلوب يشتمل على كثير من الأسرار والحكم البلاغية، لا يقف عليها إلا من أعانه الله على تدبر وتأمّل كتابه الكريم.
5- دراسة مثل هذه المواضيع تصل بطالب العالم إلى معرفة أسباب الإعجاز في القرآن الكريم.
6- الاهتمام بدراسة اللغة العربية وقواعدها؛ لأنها سبب رئيسي في الوقوف على مثل هذه اللطائف والأسرار والحكم.

7- معرفة الألفاظ المتقدّمة والمتأخّرة في كتاب الله – تعالى - توصل إلى فهم كتاب الله الكريم فهما صحيحا

الهوامش

- القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.

(1) سورة الإســـراء. الآية: 88.
(2) هو: محمد بن عبد الله الزركشي، الفقيه الأصولي، من مؤلفاته: النكت على البخاري، والبحر في الأصول، توفي سنة794هـ . ينظر : طبقات الشافعية، أبوبكر بن محمد ابن قاضي شهبة، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه: عبد العليم خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط1، 1979م.3 / 227 .

(3)- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي دار الحديث، القاهرة د. ط ، 2006م. ص : 420.
(4)- الكليات، أيوب بن موسى الكفـــوي، تحقيق : عدنان درويش، وآخر، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، 1998م. ص: 260 .

(5) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، د. ط. ت. ص: 106.
(6)هو: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني، المجتهد، المحدث، الحافظ، المفسر، من مؤلفاته: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، والفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان، توفي سنة720هـ. ينظر: الذيل على طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، ط1، 2005م . 491/4.
(7)- مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق : عدنان زرزور، ط : 2 1972م , ص : 93.
(8) هو: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين، من مؤلفاته: تاج العروس في شرح القاموس، وبلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب. توفي سنة 1205هـ. ينظر: الأعــلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط : 15 ،2002م .70/7.

(9)- تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: إبراهيم التـــرزي، ط1، 2000م.، مادة: (قدم) .
(10) هو: سعيد بن مَسْعدة، أبو الحسن، الأخفش الأوسط، نحوي، عالم باللغة والأدب، من مؤلفاته: معاني القرآن، والاشتقاق، توفي سنة215هـ. ينظر: طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف، ط : 2، د . ت . 1/ 72.

(11) - ينظر: معاني القرآن، سعيد بن مسعدة الأخفش، تحقيق: هدى محمود قـراعة ، مكتبة الخانجي ط1، 1990م.، 369/1.
(12) ينظر: الصحاح، مادة: (قدم).
(13) - القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م. : مادة: (قدم)

(14) ينظر: الصحاح: مـــادة: (أخر).
(15) هو: الخليل بن أحمد الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب، أول من استخرج العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، من مؤلفاته: كتاب العين، ومعاني الحروف ، توفي سنة170هـ. ينظر: طبقات النحويين واللغويين557/1.

(16) ينظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزوم، وآخر، د. ط. ت .

مادة: (أخـــر).
(17) ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار المعارف، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخران، د. ط . ت. مادة: (أخر).

(18) هو: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، أبو البقاء، كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في تركيا، وبالقدس، وببغداد، من مؤلفاته: الكليات، توفي سنة 1094هـ. ينظر: الأعلام38/2.

(19) الكليات. ص257.
(20) ينظر: الإكسير في علم التفسير، سليمان بن عبد القوى البغدادي، تحقيق: عبد القادر حسين مكتبة الآداب، ط2، 1997م.. ص189.
(21) هو: مُجاهد بن جَبْر، تابعي، مفسر من أهل مكة، توفي سنة103 هـ . ينظر: طبقات المفسرين، محمد بن علي الداوودي، مراجعة : لجنة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط: 1، 1983م.305/2.
(22) سورة الكهف. الآية1، ومن الآية2.
(23)- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركـــي، مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2003م.483/9.
(24) هو: طاووس بن كيسان، تابعي، فقيه مفسر، توفي سنة106هـ . ينظر: طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنهوي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، د . ط ، 1997م. ص : 12.

(25) ســورة القمر، الآيــة : 1.

(26) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، د. ط ، 1984م./170.
(27) ينظر: البرهان في علوم القرآن، 770.
(28) هو: محمد بن نصر الله بن عبد الكريم الشيباني الموصلي، من مؤلفاته: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، توفي سنة 622هـ. ينظر: الأعلام125/7.
(29) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، علق عليه: أحمد الحوفي، وآخر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط2، د. ت .2/ 210

(30) هو: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، من كبار أئمة العربية والبيان، من مؤلفاته: إعجاز القرآن الكبير والصغير، والعمدة في التصريف. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط2، 1979م. 106/2.

(31) دلائل الإعجاز. ص 106.
(32) ينظر: البرهان في علوم القرآن. ص774، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 210/2-223.
(33) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، اعتنى به وعلق عليه: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 2008م. ص : 447 وما بعدها،
والبرهان في علوم القرآن. ص774 ، وما بعدها.
(34)- سـورة النحل . الآية : 6.
(35)- ينظر: زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المكتب الإسلامي، ط: 3 ، 1984م .430/4.
(36) هو: محمد بن عمر بن الحسين البكري، الإمام المفسر، من مؤلفاته: التفسير الكبير، والمحصول في أصول الفقه، توفي سنة604هـ . ينظر: طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: على محمد عمر، مكتبة وهبة، ط1 1976م. ص: 115.

(37)- مفاتيح الغيب، محمد الرازي، دار الفكر، ط1، 1981م.233/19 .
(38) سورة الفرقان. من الآية48، الآية49.
(39) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ص224/2.
(40) مفاتيح الغيب91/24.
(41) سورة الأنبياء. من الآية78.
(42) الكشاف : الزمخشري ، 158/4.
(43) الكليات. ص: 260.
(44) الإتقان في علوم القرآن 446 ، والبرهان في علوم القرآن.، ص: 797.
(45) سورة الحشر، من الآية : 2.
(46) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة، د. ط. ت. 299/5 .

(47) ينظر: الإكسير في علم التفسير192/191.
(48) سورة مريم. من الآية: 46.
(49) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر215/2-216.
(50) هو: محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس من مؤلفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتنوير، توفي سنة1393هـ. ينظر: الأعلام174/6.
(51) التحرير والتنوير16-119.
(52) سورة هود. من الآية70.
(53) مفاتيح الغيب27/18.
(54) التحرير والتنوير: ابن عاشور ، 119/12.
(55) الإتقان في علوم القرآن : السيوطي ، 451، والبرهان في علوم القرآن . ص : 803 - 805.
(56) سورة البقرة. من الآية: 57.
(57) سورة الأعراف. من الآية161.
(58) ينظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور ، 144/9.
(59) من الآية : 3.
(60) من الآية : 61.
(61) ينظر: الكشاف ، 152/3، والإكسير في علم التفسير . ص: 248.
(62) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 227/2.
(63) سورة آل عمران. الآية : 106.
(64) ينظر: مفاتيح الغيب، 187/8.
(65) ينظر: الكليات ، 257 ، والبرهان في علوم القرآن. ص774.
(66) ينظر: قواعد التفسير، خالد عثمان السبت، دار ابن عفان، د. ط. ت .379/1.
(67) ينظر: الكليات. ص1066.
(68) من الآية: 71.
(69) سورة البقرة. من الآية: 66.
(70) ينظر: التفسير البسيط ، 57/3.
(71) سورة الأحزاب. الآية: 7.
(72) ينظر: البرهان في علوم القرآن . ص774.
(73) سورة النساء. من الآية: 162.
(74) ينظر: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وآخر، مؤسسة الرسالة، ط1 2006م./222.

(75) ينظر: الكليات. ص: 259.
(76) ينظر: أحكام القرآن: أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، لبنان ، د . ط . 1992م 3 /372.
(77) سورة البقرة. من الآية195..

(78) هو: عبد الله بن العباس الهاشمي، صحابي، ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- توفي سنة 68هـ . ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، صححه وخرج أحاديثه : عادل مرشد، دار الإعلام ، ط1، 2002م. ص: 423.
(79) سورة البقرة. من الآية : 196.
(80) سورة النساء. من الآية : 11.
(81) الكليات، ص: 259، أحكام القرآن، للجصاص372/3.
(82) سورة آل عمران. من الآية54.
(83) ينظر: التحرير والتنوير259/3.
(84) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الفقيه المفسر المحدث، من مؤلفاته: الجامع لأحكام القرآن، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، توفي سنة 671 هـ. ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر بيروت، لبنان. د. ت . ص : 197..
(85) ينظر: الجامع لأحكام القرآن152/5.
(86) ينظر: قواعد التفسير379/1.
(87) ينظر: البرهان في علوم القرآن. ص771، الإكسير في علم التفسير. ص189.
(88) سورة التوبة. من الآية101.
(89) ينظر: مفاتيح الغيب، 216/15.
(90) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، صحابي، حريص على العلم والحديث، توفي سنة57هـ. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ص 862.

(91) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح،352/4، كتاب: التمني، باب: ما يجوز من ، وقوله تعالى: (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً)، رقم الحديث: 7244. 1. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه : محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، وآخران، المطبعة السلفية القاهرة، ط1، 1400هـ.
(92) سورة فاطر. من الآية32.
(93) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر224/2.
(94) - الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخر، مكتبة العبيكان، ط1، 1998م. 5 /157.
(95) سورة البقرة. من الآية42.
(96) ينظر: البرهان في علوم القرآن. ص772.